نظرية السلالم الحجاجية – قصيدة بانت سعاد مثالًا

الكلمات المفتاحية: السلالم، الحجاج، بانت سعاد

البحث مستل من رسالة ماجستير

إيمان قاسم حسن **أ.د. نصيف جاسم محمد**

جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الإنسانية **جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الإنسانية**

amas6976@gmail.com **Dr.nasif1970@gmail.com**

الملخص

يُعنى هذا البحث بنظرية السلالم الحجاجية في قصيدة بانت سعاد مثالًا تطبيقيًا، وسنتناول فيه المراحل التي ارتكزت عليها الحجاجيات اللسانية؛ لإرساء قواعدها، مبينًا مفهوم القسم الحجاجي؛ بوصفهِ جزءًا مهمًا في هذه النظرية، ثمَّ استعرض مفهوم السُلم الحجاجي؛ لأَنَّهُ يُعَدُّ علاقة ترتيبية للحجج، يلجأ إليها المتكلم لتحقيق مقاصده، ومن ثمَّ توجه المتلقي وجهة حجاجية معلومة، فضلًا عن قوانين السلم الحجاجي، موضحًا بعض الشواهد لهذه القوانين.

المقدمة:

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى أكرمِ خلقهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ أَجمَعِينَ، وَبَعدُ..

انمازت قصيدة بانت سعاد باحتضانها الكثير من الآليات اللّغوية التي لم تقتصر وظيفتها على الغرض اللّغوي فحسب، بل تعدتها إلى أغراض أُخرى، ولعل أهم هذه الآليات نظرية السلالم الحجاجية، التي يتجلى دورها في ترتيب حجاجية الألفاظ داخل الخطاب، محققة نوعًا من التلازم في العملية الحجاجية؛ إذ يُعَدُّ السلم الحجاجي نوعًا من العلاقات التي تترابط فيما بينها؛ لتنسج الخطاب، وهذه العلاقات قائمة بلا شكّ على التدرج والترتيب الذي يوجب التلازم بين الحجة والنتيجة، ويؤدي بذلك إلى توجيه الملتقي.

وقد كان الهدف من هذا البحث الوقوف على بيان أثر هذه النظرية في اللّغة، وبيان مدى توظيفها من لدن المتكلم؛ لتحقيق مقاصده، والكشف عن أهم المواضع التي ورد فيها تطبيق لهذه النظرية في قصيدة بانت سعاد.

مفهوم نظرية السلالم الحجاجية:

لا شكّ أَنَّ هذه النظرية تنطلق من مبدأ التلازم القائم في العملية الحجاجية بين القول الحجة (ق) ونتيجته (ن)، والمراد بالتلازم أَنَّهُ لا تكون الحجة حجة بالنسبة للمتكلم إِلَّا بإضافتها إلى نتيجة، مع التنبيه على أَنَّ النتيجة قد تكون ظاهرة مصرحًا بها، أو مضمرة ضمنيًا(١).

ونتيجة للكشف عن بعض المميزات الخاصة بسلوك بعض الروابط قد أدى إلى التطور التدريجي في استحضار النظرية الحجاجية اللسانية للسلمية في تحليلها للملفوظات الحجاجية؛ ففي إشارة لأنسكومبر في إحدى مقالاته يرى استحالة إجراء وصف إخباري سليم لبعض الملفوظات نحو ما مثل به:

- حتّى زيد كان حاضرًا.
- زيد كان حاضرًا.

فإِنَّ (حتّى) في هاتين الجملتين لا تمثل ملفوظًا ذا وصف إخباري خالص؛ فلو كانت على نحو ما وصفت به لما أمكن الاستغناء عنها في الجملة الثانية من دون أَنْ يكون لها تأثير في تغيير معنى الجملة، ولا شكّ أَنَّ ورودها في الجملة ليس عبثًا؛ إذ إِنَّ استحضاره كان لقصد، وهو استثمار هذا الحضور لـ(زيد)، ومثله: الحفلُ كان ناجحًا، أو الحفل كان فاشلًا، أو أي معنى آخر يوجبه السياق، وهذه الوظيفة لا يمكن فهمها إِلَّا بوساطة وصلها بالسياق وربطها(٢).

وعُدّتْ هذه الملاحظة الانطلاقة التي قدم بوساطتها ديكرو تصورًا واضحًا بما يعرف بالسلم الحجاجي؛ كاشفًا عن طريقة الأثر الذي تؤديه العلاقات السلمية التي تنظم الملفوظات اللّغوية، وتنتهي بإنشاء الحجاج داخل الخطاب(٣).

وتتجلى أهمية نظرية السلالم الحجاجية في استظهار قيمة القول حجاجيًا من المحتوى الخبري للقول، بمعنى أَنَّهُ لا يجري الحكم على القيمة الحجاجية بمدى صدقها أو كذبها؛ فهي غير خاضعة لشروط الصدق المنطقي، وليست مضافة إلى بنية اللّغة، بل مسجلة فيها، ويكون تنظيم اللّغة الداخلي هو المتنبئ بها؛ وعليه فإذا كانت الوجهة الحجاجية للقول هي التي تحدد قيمته بوصفه داعمًا لنتيجة ما، وإذا كان القول منتميًا لحيز حجاجي قائم على قوّة

مكوناته وضعفها بالنسبة لنتيجة ما فإنَّ مفهوم السلمية الحجاجية، وتركزيها على المستوى المتدرج، وعلى الموجه من الأقوال يظهر لنا أَنَّ المحاجة ليست مطلقة، ولا تتحدد بمحتوى القول الخبري، بل تكون رهن اختيار هذه الحجة أو تلك، وعلى وفق نتائج محددة؛ وانطلاقًا من ذلك كُلّه يكون الحكم على المحاجة أساسه القوّة والضعف على وفق مبدأ التدرج فيها، لا على أساس الصدق أو الكذب(٤).

وما جاءت هذه النظرية إلَّا لتقدم مفهومًا بيّنًا واضحًا لتدرج العملية الحجاجية؛ على أساس أَنَّها فعالية بين قول الحجة ونتيجتها(٥)؛ فموضوع الحجاج في اللّغة هو: ((بيان ما يتضمنه القول من قوّة حجاجية تمثل مكونًا أساسيًا لا ينفصل عن معناها يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم يوجّه قوله وجهة حجاجية ما))(٦)؛ وعليه كان مناط عناية هذه النظرية ترتيب حجاجية الأقوال داخل الخطاب.

وإنَّ ما آلت إليه الحجاجيات اللسانية وبُنيت عليه مسارها لم يكن دفعة واحدة، وإنَّما جاءت بوساطة نسج لبناتها بمراحل خمس، استطاعت عن طريقها أَنْ ترتكز عليها؛ دعمًا لإرساء قواعدها(٧)، وهي:

المرحلة الأولى: أهم ما يميز هذه المرحلة النظرة المنفصلة إلى اللّغة والحجاج، بمعنى أَنَّهُ لا يوجد فرق بين هذه النظرة وبين التقليد الذي كان سائدًا في الخطابة.

المرحلة الثانية: يمكن أَنْ توسم هذه المرحلة (بمرحلة التقدّم) نوعًا ما؛ إذ حصل فيها نوع من التفاعل مع الفلسفة التحليلية، وتجلى هذا التقدّم بحبك الثغرات بين الحجاج واللّغة ونسجها، وقد انعكس الحجاج في اللّغة عبر ما تتماز به الملفوظات من خصائص دلالية، على الرغم من بقاء القول باستقلال الحجاج عن بنية اللّغة.

المرحلة الثَّالثة: تمثلت هذه المرحلة وانمازت بصدور كتاب ديكرو وأنسكومبر (الحجاج داخل اللّغة) عام ١٩٨٣؛ إذ حرى بالباحثينِ حقيقة وقوفهما بما تنطوي عليه بنية الجمل من عوامل حجاجية كامنة في اللّغة، تنتهي إلى التأكيد أَنَّ اللّغة مشبعة بالقيم الحجاجية والقيم الخبرية الحاضرة جنبًا إلى جنبٍ في دلالة الجمل.

المرحلة الرابعة: استندت هذه الدّراسة في هذه المرحلة إلى موقف جذري لا يجد في الجمل اللّغوية بتمامها إلَّا مظهرًا لحركية حجاجية شاملة، وتجلى ذلك بالرجوع إلى مفهوم الموضع المتجذر أرسطيًا، الذي يبين كيف يتمركز الحجاج في الطبقات القاعدية للّغة.

المرحلة الخامسة: هي المرحلة الراهنة التي انمازت بالمراجعة الشاملة لمفهوم الموضع في ضوء المنطلقات الأساسيّة، وتتمثل في مبادئ المقاربة البنيوية بأصلها السوسيري، منتهية بإعادة النظر في نواة النظرية الحجاجية ومدى وجود الحجاج داخل اللّغة.

مفهوم القسم الحجاجي:

اصطلح ديكرو لهذا المفهوم بالاختصار (C.A)؛ بوصفهِ عنصرًا مهمًا ومركزيًا في نظرية السلالم الحجاجية؛ وهو ما حرى بنا للوقوف عنده بعد إقرار ديكرو بذلك؛ لأَنَّهُ مصطلحًا مركزيًا؛ إذ يعرفه قائلًا[٨]: ((إنَّ المتكلم في وضعية خطاب محددة يمكن أَنْ يضع ملفوظين في قسم حجاجي واحد يفضي إلى نتيجة (ن) بشرط أَنْ يكون الملفوظان يقودان ويخدمان نفس النتيجة (ن)))[٩]، وبمعنى آخر هو: مجموعة الحجج أو الأقوال التي تقوم بمقام (ق١) في العملية الحجاجية، وتفضي هذه الحجج المجموعة التي نتيجة واحدة ترسخها وتؤكدها[١٠]، ويشير ديكرو إلى أَنَّ القسم الحجاجي متغير على وفق ما يتلفظ به المتكلم، وهو محكوم بنوعية النتائج التي يخدمها، بمعنى أَنَّهُ ذو طبيعة نسبية؛ فمتى ما تغير اختيار هذه النتائج تغير القسم الحجاجي[١١].

وقد ساق عزَّ الدِّين الناجح المثال الآتي؛ لتوضيح مفهوم القسم الحجاجي[١٢]:

فالأقسام الحجاجية الموظفة في هذا السلم تنتمي إلى مجال واحد غير منتقاة من مجالات مختلفة، وهي تخدم نتيجة واحدة وهي (اشرب القهوة).

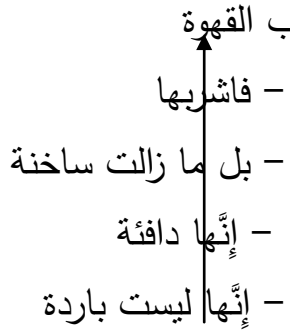

ومن هذا المنطلق اتخذ السلم الحجاجي نجاعته ورقيّه؛ إذ إنَّ تعدد الحجج أمر ضروري يوجب ترتيبها على وفق منظور معين، مثل: قوّة الحجة أو ضعفها؛ فليس من البديهي أَنْ تكون الحجج متساوية؛ وإلّا لما تعددت؛ إذ إنَّ هذا التعدد يستدعي الترتيب والسلمية للحجج، والذي يقوي ذلك ما للملفوظ من طاقة تمنحه الظفر بالنتيجة[١٣]، وهو ما ذهب إليه موشلار وريبول بقولهما: ((إنَّ الحجج التي تنتمي إلى قسم حجاجي واحد تحكمهما علاقة الرتبة بعضها قوي وبعضها ضعيف))[١٤].

ولا شكّ أَنَّ هذا التدرج في الحجج هو الذي يكسب الحجاج في اللّغة إمكاناته الواسعة الغنية التي تميزه من البراهين المنطقية والرياضية؛ لأَنَّ الحجاج يعتمد على الحجج لا على الدليل البرهاني، والحجة تؤكد النتيجة لا تفرضها؛ لأَنَّ الفرضية تلغي التعدد[١٥].

السلم الحجاجي:

إذا كانت نظرية السلم الحجاجي قد تأسست على ما تطرحه الحجة؛ فالحجاج من هذه الناحية يكون عبارة عن تراكم من العلاقات النصية القائمة في الخطاب[١٦]؛ إذ إنَّ ((الخاصية الأساسيّة للعلاقة الحجاجية أَنْ تكون درجية أو قابلة للقياس بالدرجات؛ أي أَنْ تكون واصلةً بين سلالم))[١٧].

ولما كانت العلاقات الحجاجية متدرجة؛ فهذا يوجب أَنْ يكون هناك ترابطٌ بين القول، والحجة، والنتيجة، التي تترتب على ذلك[١٨]؛ وعليه يكون السلم الحجاجي: ((مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزودة بعلاقة ترتيبية ومستوفية للشرطين الآتيين:

- كُلّ قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته؛ بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.
- كُلّ قول في السلم كان دليلًا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوى))[١٩].

ويمكن توظيف ذلك بالمثال الآتي[٢٠]: نقول:

- حصل عمر على الليسانس.
- حصل عمر على الماجستير.
- حصل عمر على الدكتوراه.

فلا شكّ أَنَّ هذه الجمل متضمنة حججًا تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة وسلم حجاجي واحد، وجميعها تؤدي إلى نتيجة مضمرة تدلّ على الكفاية العلمية لـ(عمر) وما ورد في آخر الأقوال، وهو حصول (عمر) على الدكتوراه جاء في أعلى درجات السلم الحجاجي، وهو دليل قوي على كفاية (عمر) العلميّة وقدرته، ونمثل لها بـ:

ن: الكفاية العلميّة

د: الدكتوراه – ح٣

ج: الماجستير – ح٢

ب: الليسانس – ح١

إذ إنَّ: (ب)، و(ج)، و(د) حجج تخدم النتيجة (ن).

وعليه فإذا قدمت هذه الأقوال حججًا لتخدم نتيجة واحدة وهي تفوق (عمر) سنجد (ح٣) أقوى في سلمية الحجج من (ح٢) التي هي أقوى من (ح١)، وإنْ كانت هذه موصلة لنتيجة واحدة؛ لكنها ليس بطاقة حجاجية متكافئة؛ فالحجة (١) في قعر السلم الحجاجي هي عون للحجة (٢) وسند لها، بل هي أساس ومنطلق لها، بمعنى أَنَّهُ متى ما كانت الحجة قريبة من قمة السلم كانت أكثر تأثيرًا ونجاعة في المتلقي، في حين تكون الأقرب لقعر السلم أَقل حجاجية وتأثيرًا في المتلقي[٢١].

وعليه تكون هذه الحجج غير متساوية، وتترتب على أساس درجات القوّة والضعف؛ وهو ما يقودنا إلى أَنَّ فحوى العملية الحجاجية يتمثل في ((تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها؛ إذ لا يثبت غالبًا، إلَّا الحجة التي تفرض ذاتها على أَنَّها أقوى الحجج في السياق)) [٢٢].

لا شكّ أَنَّ صفة السلمية تهيمن على أطرافها والعناصر المركبة لها علاقة تنبني على الاسترسال والاستلزام الذي يتوجب فيه وجود الضعيف القوي والأعلى الأسفل[٢٣]، وهذا هو ما

يسمى بالسلم الحجاجي، يقول ديكرو: ((إنَّ أي حقل حجاجي ينطوي على علاقة ترتيبية لحجج نسميه سلمًا حجاجيًا))[٢٤].

فمفهوم السلم الحجاجي ((هو علاقة ترتيبية للحجج)) [٢٥]، ويذهب ديكرو إلى وجود سمة أساسية للحجج تميزها من الأدلة في استعمالها، وما لوحظ أَنَّ هذه الحجج لا تقدّم قطعًا نهائيًا في إثباتها للنتائج كما هو شأَن البرهان؛ إذ قد يكون مجموع ما أورد من حجج في الملفوظ يخدم النتيجة نفسها؛ وانطلاقًا من ذلك نقول: إنَّها تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، أو القسم الحجاجي[٢٦].

وتكمن الوظيفة الحجاجية للّغة عند ديكرو وانسكومبر في (التوجيه) الذي يتجلى في مستويين، مستوى السامع ومستوى الخطاب نفسه؛ فمستوى السامع يتمثل في توجيهه؛ أي التأثير فيه، ومواساته، وإقناعه،... أَمّا مستوى الخطاب فيكمن هذا التوجيه حين يؤدي القول (ق١٠) بالضرورة إلى استدعاء (ق٢٠) وظهوره بصورة صريحة أو ضمنية[٢٧]، بمعنى أَنَّ غاية الخطاب الحجاجي عند ديكرو تتمثل في ((أَنْ تفرض على المخاطب نمطًا من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أَنْ يسير فيها)) [٢٨]، وهو ما ذهب إليه أبو بكر العزاوي؛ إذ يرى أَنَّ مفهوم الاتجاه الحجاجي يرتبط بسلمية الحجاج، ويُعنى به: ((أَنَّهُ إذا كان قول ما يمكن من إنشاء فعل حجاجي؛ فإنَّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحًا أو مضمرًا)) [٢٩].

وبناءً على ذلك كُلّه يتضح لنا أَنَّ السلالم الحجاجية لا يقتصر أثرها على تدرج الحجج وتدفقها، وإنَّما يتعداها ليشمل الوجهة الحجاجية التي ينقاد إليها القول الحجاجي.

وتتجلى سلمية الحجج وترتيبها في قول كعب بن زهير:

فما تدوم على حالٍ تكونُ بها كما تلون في أثوابها الغولُ

وما تمسك بالوصل الذي زعمت إلَّا كما تمسك الماءَ الغرابيلُ

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا وما مواعيدها إلَّا الأباطيلُ[٣٠]

يجتهد كعب في هذه الأبيات في الاحتجاج لصدق دعواه وصحة ما ذهب إليه؛ فهو يتحدث عن تبدل هذه المرأة وتغيّر هواها، مصورًا خيانتها، وعدم وفائها بوعدها؛ فهو يدفع بالمتلقي

إلى عدم الوثوق بهذه المرأة والاطمئنان إليها؛ لذلك ضرب مثلًا معروفًا لإخلافها الوعود وهو: (مواعيد عرقوب) الذي اشتهر بإخلافه الوعد، جاعلًا منها بموجب عمليّة قياس يسيرة تصبح قاعدة في إخلافها الوعود والتنكر للعهود، ثمَّ يقدّم حجةً أُخرى قائمة على تشبيه مسك هذه المرأة بالعهود كمسك الغرابيل التي لا تُبقي على الماء حال وضعه فيها؛ فكذلك هذه المرأة فهي لا تحافظ على العهد، وهي حجة قوية يوظفها كعب، ودليلًا على خيانة هذه المرأة وعدم انتظار الوفاء منها، ثمَّ يقدّم حجة أقوى يدفع عن طريقها المتلقي إلى عدم الاطمئنان لمزاجية هذه المرأة، مشبهًا تقلّبها بتقلّب الغول بكُلّ ما تنطوي عليه من تغير، وتحول، وقدرة على الظهور بين الحين والآخر، بصورة تخالف ما كانت عليه، ولا شكَّ أَنَّ الحجج الموظفة بما انطوت عليه من طاقة حجاجية وتباين في درجة الإقناع؛ فهي ترسخ في نفس المتلقي، وتحمله إلى عدم الاطمئنان إلى هذه المرأة وعدم الانتظار الوفاء منها في شَتّى الظروف والأحوال[٣١]، ويمكن التمثيل لها بالسلم الآتي:

ن: عدم الوفاء والتنكر للوعود والعهود

الغول – ح٣

الغرابيل – ح٢

مواعيد عرقوب – ح١

ومنه قوله:

لا تأخـــذني بـــأقوال الوشـــاةِ ولـــم أُذنـــب وإنْ كثـــرت عنّـــي الأقاويـــل[٣٢]

في هذا البيت يحاول كعب متدرجًا في نفي كُلّ ما أُلصقَ به من التهم، ونيله العفو بسؤال يتضرع فيه للرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) بعدم مؤاخذته بما رُمي به من أقوال الوشاة، ثمَّ يسترسل مبرئًا نفسه من الذنوب التي أثبتت عليه رغم كثرة هذه التهم والأقاويل، ولا شكّ أَنَّ التدرج الذي سارَ فيه هو لغاية مقصودة يروم عن طريقها استجلاب القلوب، واستمالة الخواطر؛ ومن ثمَّ نيل الاستعطاف الذي تحقق مِمَّا وظفه:

١. في تعبيره عن الساعين بالوشاة.

٢. التبرؤ من الذنب والتنصل منهُ.

٣. الإشارة إلى عظم العفو باستعظام الذنب بقولهِ: (وإنْ كثرت عنّي الأقاويل) [٣٣].

ويمكن التمثيل لذلك بالسلمية الآتية:

ن: وقوع التلطف والاستعطاف

- الإشارة إلى عظم العفو باستعظام الذين
- التبرؤ من الذنب
- التعبير عن الساعين بالوشاة

فكان للحجج التي وظفها كعب أثر كبير في تحقيق غايته، وترسيخ مقاصده، التي يبتغيها من أَجل نتيجة يسعى للوصول إليها، وهي نيل عفو الرسول (عليه الصّلاة والسّلام).

ومنه قوله:

مـن ضـيغم مـن ضـراء الأُسِـد مُخـدره بــبطن عشــر غيــلٌ دونــه غِيْــلُ[٣٤]

يغــدو فــيلحم ضــرغامين عيشــهما لحــمٌ مــن القــومِ معفــورٌ خراديــلُ[٣٥]

إذا يســـاور قرنًـــا لا يحـــلُّ لَـــهُ أَنْ يتــرك القــرنَ إِلَّا وهــو مفلــولُ[٣٦]

منــهُ تظــلُّ حميــرُ الــوحشِ ضــامزةً ولا تمشـــي بواديـــهِ الأراجيـــلُ[٣٧]

ولا يـــزال بواديـــهِ أخـــو ثقـــةٍ مُطــرّحُ البــزِّ والدرســانِ مــأكولُ[٣٨]

في هذه الأبيات يشبه كعب الممدوح وهو الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) بالأسد عن طريق توظيفه مجموعة من الحجج التي يؤكد بوساطتها شجاعة هذا الأسد وشدة الخوف منهُ؛ لهيبته، فهو يقدّم حجة أَنَّ هذا الأسد من شدّة شجاعته فإِنَّ حمير الوحش ساكنة من هيبته لا تستطيع منهُ حركة؛ خوفًا منهُ وحذرًا، ثمَّ يقدّم حجة أُخرى هو أَنَّ هذا الأسد إذا التقى مع مقاوم لَهُ لا يعرض عنه حتّى يكسره أو يهزمه، أَمّا الوجه الآخر لهيبة هذا الأسد فيقدّمه بحجة أُخرى هو أَنَّهُ لا يطعم ولديه إِلَّا لحم الآدمي ثمَّ يعفره في التراب قطعًا صغارًا غير مكترث بالآدميين، ولشدة ضراوته فهو لا يختطف الآدمي ليلًا وإِنَّما أوّل النهار في نشاطه وقوته، ومن كان كذلك فهو جديرٌ بأنْ يُهاب، وآخر هذه الوجوه التي خصَّ بها هيبة هذا الأسد جاعلًا منها قمة في السلم الحجاجي أَنَّهُ لما كان كالملك في الآدميين وكان متخفيًا كان أَشد هيبةً وعظمةً في النفوس؛ فكلما زاد خباءه ازداد توحشًا وشراسة، بمعنى أَنَّهُ كلما زاد اختفاؤه اشتدت هيبته[٣٩].

وبذلك استرسل كعب موظفًا هذه الحجج؛ ليؤكد بوساطتها شجاعة هذا الأسد وشدة الخوف منهُ عبر رسالة مرسلة للرسول(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) مبيّنًا فيها شدّة خوفه وروعه من وعيده الذي توعده إياه.

ونمثل لها بالسلم الآتي:

ن: شدّة الخوف من الأسد لشدة هيبته وهو الممدوح الرسول (عليه الصّلاة والسّلام)

ن

- اختفاء الأسد للدلالة على هيبته
- يطعم ولديه لحم الآدمي
- إذا التقى مع مقاوم لَهُ لا يعرض عنه
- حمير الوحش ساكنة

قوانين السلم الحجاجي:

صاغ ديكرو في كتاباته بشأَن السلم الحجاجي ثلاثة قوانين عُدّت قواعد داعمة للسلم ومساندة لَهُ، وهي:

١. قانون الخفض:

مقتضى هذا القانون أَنَّ العبارات المنفية مساوية للعبارات المثبتة من وجهة أُخرى[٤٠]؛ ذلك أَنَّهُ ((إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم؛ فإِنَّ نقضيه يصدق في المراتب التي تقع تحتها)) [٤١].

فلو أخذنا المثال الآتي: أنا متفوقة فهذا يعني: أَنَّني لست مخفقة أو فاشلة؛ فالعبارة الأولى مساوية للثانية من ناحية المعنى، مع أَنَّ الأولى مثبتة والثانية منفية؛ الأمر الذي جعل من صياغة هذه الوقائع أمرًا في غاية الصعوبة؛ وذلك ((أَنَّ الخفض الذي ينتج عن النفي لا يتموقع في السلم الحجاجي ولا يتموقع في سلمية تدرجية موضوعية))[٤٢]؛ وبذلك لا يمكن صف الأقوال المثبتة والمنفية وإدراجها في فئة حجاجية واحدة أو سلم حجاجي واحد[٤٣]. ولا شكّ أَنَّ الترتيب في الحجج قد يُعدل أو يتغير، إما بزيادة وإما بنقصان، ومن حين لآخر؛ وذلك اعتمادًا على العوامل الداخلة عليه، أو بحسب دلالة المدلول وقوته، وبالإمكان تغيُّر

الموقف من حجة عُدّتْ صادقة بعد أَنْ كانت كاذبة والعكس صحيح؛ لذا سيظهر مفهوم القوّة واضحًا جليًا في السلمية الحجاجية؛ لأَنَّهُ قائم على حجج متدرجة قوّة وضعفًا(٤٤).

٢. قانون تبديل السلم (النفي):

ومقتضاه أَنَّهُ يقوم على مبدأ النقيض، ومفاده: ((إذا كان القول دليلًا على مدلول معين؛ فإِنَّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله)) (٤٥)، بمعنى أَنَّنا لو استعملنا ملفوظًا ما وليكن (أ) ليخدم نتيجة معينة فإِنَّ نفيه (~أ) سيكون حجة للنتيجة المضادة، وبتعبير آخر: إذا كان (أ) تندرج في ضمن فئة حجاجية محددة بوساطة (ن) فإِنَّ (~أ) يندرج للفئة الحجاجية المحددة بوساطة (لا – ن) (٤٦).

يقول كعب:

يا ويحها خُلّةً لو أَنَّها صدقت ما وعدت أو لو أَنَّ النصح مقبول

لكنَّها خُلَّةً قد سيط من دمها فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ

يوظف كعب في البيت الأَوّل حججًا يبين بوساطتها أَنَّ محبوبته على أتم الخلال لو أَنَّها صدقت بوعودها التي قطعتها لَهُ، وكان النصح مقبول عندها؛ فتكون بذلك أهلًا للثقة؛ لكنه سرعان ما يتردد في ذلك عن طريق توظيفه قانون تبديل السلم (النفي)، وهو نفي ضمني عن طريق أداة الشرط (لو)، يقول عبّاس حسن: ((إفادة امتناع المعنى الشرطي في الماضي يقتضي أَنَّ شرطها لم يقع فيما مضى (أي: لم يتحقق معناه في الزمن السابق على الكلام)؛ فهي تفيد القطع بأَنَّ معناه لم يحصل؛ فكأَنَّها بمنزلة حرف نفي ينفي معنى الجملة التي يدخل عليها مع أَنَّها ليست حرف نفي ولا يصح إعرابها حرف نفي بالرغم من أَنَّها تؤدي ما يؤدي حرف النفي من سلب المعنى في الزمن الحاضر))(٤٧).

فضلًا عن ذلك فهو يوظف (لكن) في البيت الثاني مستدركًا بها مجموعة من الحجج، وهذا يدلّ على مغايرة حكم ما سبقها لحكم ما بعدها، وهذا يستلزم وجود طرفين مختلفين أَحدهما: مثبت، والآخر: منفي، وهو المراد به: قيد الاستدراك، وإِلّا فإِنَّهُ لا يمكن توظيفه في وجود تآلف بين الحكمين؛ وعليه فـ(لكن) تنفي وترفع ما يتوقع تقريره وتحققه، وإقرار ما يتوقع نفيه؛ أي: رفع توقع نَشَأَ من كلام سابق(٤٨)؛ ليدلّ على أَنَّهُ قد خلط في دمها من الإفجاع بالمكروه،

وكذب القول، وإخلاف الوعود والعهود، وتبديل خليل بآخر؛ وكأنَّ ذلك صار صفة لها قد جُبلت عليها، ولا شك أَنَّ ذلك يقودنا للقبول بالحجج الواردة في البيت الأَوّل، ومن ثمَّ فهو يحتم علينا قبول الحجج الواردة في البيت الثاني بعد نفي ذلك عنها عن طريق توظيف أسلوب النفي الضمني بوساطة أداة الشرط (لو)، ويمكن توضيح ذلك عن طريق ترتيب الحجج في قانون تبديل السلم (النفي):

ن: هي أهلًا للثقة

- قبلت النصح
- صدقت في وعودها

ن: ليست أهلًا للثقة

- تبديل خليل بآخر
- إخلاف الوعود
- كذب القول
- الإصابة بالمكروه

وبذلك وفّق كعب في تحقيق مقاصده وأهدافه التي يبتغيها عن طريق توظيف قانون تبديل السلم (النفي)؛ ليثبت للمتلقي بأَنَّ محبوبته ليست أهلًا للثقة، ولا يمكن الاطمئنان إليها.

ويظهر لنا أَنَّ قوة النفي تترّتب ترتيبًا عكسيًا؛ وذلك لأَنَّ نفي ما يندرج في أدنى السلم هو نفي قوي لمدلول الخطاب؛ وبذلك فإنَّ نفي أحد الأدلة أي إحدى الحجج يؤدي إلى نفي مدلول الخطاب[٤٩].

٣. قانون القلب:

يرتبط هذا القانون بالنفي، ومفاده ((أَنَّ السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية))[٥٠]، بمعنى: ((إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين؛ فإنَّ نقيض الثاني أقوى من نقيض الأَوّل في التدليل على نقيض المدلول))[٥١].

والمثال الذي ساقهُ أبو بكر العزاوي لتوضيح هذا القانون هو[٥٢]:

- حصل زيد على الماجستير، وحتّى الدكتوراه.
- لم يحصل زيد على الدكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير.

فالدليل الأقوى على مكانة زيد العلميّة هو حصوله على شهادة الدكتوراه، في حين أَنَّ الحجة الأقوى على عدم كفايته العلميّة عدم حصوله على شهادة الماجستير أقوى من عدم حصوله على شهادة الدكتوراه.

ويتجلى ذلك في قول كعب بن زهير:

أنبئـــتُ أَنَّ رســـول الله أوعـــدني والعفــو عنــد رســول الله مــأمولُ(٥٣)

إذ وظف الشاعر في قوله قانون القلب؛ فالعفو عند الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) مأمول إذا جاء تائبًا نادمًا.

فتأمل العفو من الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) حجة أقوى من الثانية وظّفها الشاعر؛ ليحقق مقاصده؛ ومن ثمَّ فوزه بعفو الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ) (٥٤).

ن: عفو الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ)

- العفو مأمول
- أوعده الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلهِ وَسَلَّمَ)

الخاتمة:

١. تقوم هذه النظرية على التلازم بين الحجة والنتيجة؛ فالحجة لا تُعدُّ حجة للمتكلم ما لم تكن مضافة إلى نتيجة.

٢. تبين هذه النظرية أَنَّ العملية الحجاجية قائمة على مبدأ التدرج، انطلاقًا من قوّة الحجة أو ضعفها.

٣. لا يقتصر دور هذه النظرية على تحقيق الترابط والتلازم بين الحجة والنتيجة، وإنَّما يتجلى في بيان قيمة القول، وهذا يدلل على أَنَّ قيمة القول متجذرة في اللّغة.

Abstract

Argumentative Stairs Theory "Banat Suad" Poem As An Example

Key Words: Stairs, Argumentation, Banat Suad.

A Paper Extracted from An M.A. Thesis

Eman Qasim Hasan
College of Education for Humanities University of Diyala

Prof.Dr. Nsaif Jasim Mohammed
College of Education for Humanities University of Diyala

This paper is concerned with the argumentative staris Theory in "Banat Suad" Poem as an example for application. The researcher tackles the stages which the linguistic arguments hinge on the consolidate their rules. The argumentative part will be explained as an important part of this theory. Then the argumentative stairs will be tackled; because they are considered as an arrangement of argumentation which the speaker resorts to perform his purposes. The addressee is directed cowards a known argumentative from. The argumentative stairs will be explained and some evidences of these laws will be tackled.

الهوامش

(١) ينظر: نظرية الحجاج في اللّغة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٦٣.

(٢) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته: ١/٤٤٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٤٠، والحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: ١٥١.

(٤) ينظر: نظرية الحجاج في اللّغة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٧٠.

(٥) ينظر: السلالم الحجاجية في القصص القُرآني (مقاربة تداولية): ١٤٤.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١١٤، ونظرية الحجاج في اللّغة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: ٣٥٢.

(٧) ينظر: مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو: ١٩٥-١٩٦، والحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: ١٥٠.

(٨) نقلًا عن: العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة: ١٣٠، والسلالم الحجاجية في القصص القُرآني: ١٨.

(٩) المصدر نفسه: ١٣٠.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٠.

(١١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٠٠.

(١٢) ينظر: العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة: ١٣٠.

(١٣) ينظر: العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة: ١٣١-١٣٢.

(١٤) نقلًا عن: المصدر نفسه: ١٣٢.

(١٥) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٠١.

(١٦) ينظر: في حجاج النصّ الشعري: ٢٣.

(١٧) في حجاج النصّ الشعري: ٢٣، والتداولية والحجاج مداخل ونصوص: ٢١.

(١٨) ينظر: في حجاج النصّ الشعري: ٢٤.

(١٩) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ١٠٥.

(٢٠) ينظر: البُعد التداولي والحجاجي في الخطاب القُرآني: ٣٤.

(٢١) ينظر: السلالم الحجاجية في القصص القُرآني: ١١٥، والحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: ١٥٢.

(٢٢) إستراتيجيات الخطاب: ٤٩٩-٥٠٠.

(٢٣) ينظر: العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة: ١٢٢.

(٢٤) نقلًا عن: بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية: ١٨٠-١٨١، وبلاغة الإقناع في المناظرة: ١٠١.

(٢٥) التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٥٩، واللّغة والحجاج: ٢٠، والبُعد التداولي والحجاجي في الخطاب القُرآني: ٣٣.

(٢٦) ينظر: السلالم الحجاجية في القصص القُرآني: ١١٦.

(٢٧) ينظر: الحجاج في المناظرة ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢٨٣/٢، والحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: ١٥٣، والسلالم الحجاجية في القصص القُرآني: ١١٦.

(٢٨) نقلًا عن: الحجاج في الشعر العربيّ بنيته وأساليبه: ٢٣.

(٢٩) اللّغة والحجاج: ٢٥.

(٣٠) الديوان: ٢٨-٢٩.

(٣١) ينظر: الحجاج في الشعر العربيّ بنيته وأساليبه: ٢٩٧-٢٩٨.

(٣٢) الديوان: ٣٨.

(٣٣) ينظر شرح البيت: كنه المراد: ٣٥٩.

(٣٤) الديوان: ٣٩.

(٣٥) المصدر نفسه: ٣٩.

(٣٦) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠.

(٣٧) الديوان: ٤٠.
(٣٨) المصدر نفسه: ٤٠.
(٣٩) ينظر شرح هذه الأبيات: كنه المراد: ٣٧٩-٣٩٣.
(٤٠) ينظر: الإقناعية وآليات الحجاج في خطب علي بن أبي طالب – دراسة تداولية: ٦٠.
(٤١) المصدر نفسه: ٦٠، واللسان والميزان: ٢٧٧، وفي أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ١٠٥-١٠٦.
(٤٢) اللّغة والحجاج: ٢٤.
(٤٣) ينظر: اللّغة والحجاج: ٢٤.
(٤٤) ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: ١١٩.
(٤٥) اللسان والميزان: ٢٧٨، وفي أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ١٠٦.
(٤٦) ينظر: اللّغة والحجاج: ٢٢.
(٤٧) النحو الوافي: ٣٧٢/٤، والنفي في النحو العربيّ منحى وظيفي وتعليمي القُرآن الكريم – عينة –: ٢٦.
(٤٨) ينظر: اتساع المعاني المختلفة في تركيب الأداة (لكن) (مقالة).
(٤٩) ينظر: إستراتيجيات الخطاب: ٥٠٣، والحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: ١٥٧.
(٥٠) التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: ٦١، واللّغة والحجاج: ٢٢.
(٥١) اللسان والميزان: ٢٧٨.
(٥٢) ينظر: اللّغة والحجاج: ٢٣.
(٥٣) الديوان: ٣٧.
(٥٤) قراءة على الانترنت.

المصادر والمراجع:

أوّلًا: الكتب:

- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبدالهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م.
- أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية: مثنى كاظم صادق، ط١، كلمة للنشر والتوزيع – تونس، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- البُعد التداولي والحجاجي في الخطاب القُرآني: قدور عمران، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – إربد، الأردن، ٢٠١٢م.
- بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية: عبدالعالي قادا، ط١، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

- بلاغة الإقناع في المناظرة: عبداللطيف عادل، ط١، دار الأمان – الرباط، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائف: حمو النقاري، ط١، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٤٢٧/٢٠٠٦م.
- التداولية والحجاج مداخل ونصوص: صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.
- الحجاج في الشعر العربيّ بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ط٢، عالم الكتب الحديث – إربد، الأردن، ٢٠١١م.
- الحجاج في المناظرة – مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتّى بن يونس: أحمد أتزكزمت ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته – دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ط١، عالم الكتب الحديث – أربد، الأردن، ٢٠١٠م.
- الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية: رشيد الراضي، ضمن كتاب الحجاج مفهوم ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، بإشراف: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع – إربد، الأردن، ٢٠١٠م.
- ديوان كعب: العسكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، قدّم لَهُ ووضع هوامشه وفهارسه: د. حنا نصر الحثي، دار الكتاب العربيّ – بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة: عز الدّين الناجح، ط١، مكتبة علاء الدِّين، ٢٠١١م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبدالرحمّن، ط٢، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- في حجاج النصّ الشعري: محمد عبدالباسط عيد، إفريقيا الشرق – المغرب، ٢٠١٣م.
- كنه المراد في بيان بانت سعاد للسيوطي جلال الدِّين (٩١١هـ) دراسة وتحقيق: د. مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م٥.
- اللسان والميزان: طه عبدالرحمّن، ط١، المركز الثقافي العربيّ – الدار البيضاء، ١٩٩٨م.

- اللّغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.نظرية الحجاج في اللّغة: شكري المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي حمود.
- النحو الوافي، عبّاس حسن، ط٢، منشورات ذوي القربى، ١٤٣٧هـ.
- النفي في النحو العربيّ منحنى وظيفي وتعليمي القُرآن الكريم – عينة –، توفيق جعمات، رسالة ماجستير، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ١٤٢٦-١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٥-٢٠٠٦م.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح الجامعية:

- الإقناعية وآليات الحجاج في خطب علي بن أبي طالب – دراسة تداولية: ماضوي فضيلة، رسالة ماجستير، كليّة الآداب واللغات – جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- السلالم الحجاجية في القصص القُرآني مقاربة تداولية: بوسلاح فايزة، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب والفنون، جامعة وهران – 1 – أحمد بن بلة، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- الحجاج اللّغوي في كتب مجالس العلماء وأماليه: سراب سامي حسين، أطروحة دكتوراه، كليّة التربيّة للعلوم الإنسانية، جامعة ديالى، ٢٠١٩م.

ثالثًا: المجلات والدوريات:

- مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لانسكومبر وديكرو: أ. رشيد الراضي، مجلة عالم الفكر، العدد (٢)، المجلد (٤)، الكويت، ٢٠١١م.
- اتساع المعاني المختزلة في تركيب الأداة لكن، د. زياد حبوب أبو رجائي، شبكة الرجاء الإسلامية aburajia.blogspot.com.